

يأخذ أي شخص منا حَظَّنَا الطيب، صدِّقْتِي أنا رجل" (ص ٦٩).

وها هنا تبرز ثنائية الإرادة والقدر. ويبدو أن صيادنا (كينو) كان رجلاً بحق، فقد سعى ليفوز بالثروة والغنى، وهذا أمر مشروع ومقبول، ولكن القدر كان له بالمرصاد، وحاول أن يتحدّى طريقة الحياة بكاملها في بلده، ولكن اللصوص والأعداء والحسدة أحاطوا به من كل حذبٍ وصوب. إنَّ تحدي (كينو) هو رمز الإرادة، وأولئك الرجال هم رمز القدر. وها هو ذا بطل "اللؤلؤة" حائرٌ بين أمرين: التصدي أو الانسحاب، أو لنقل القبول بالنزr اليسير، أو طلب الكثير الوفير، وهذه هي أيضاً ثنائية القناعة والطموح. وقد اختار (كينو) الخيار الثاني.

وحيثما ألبته الظروف إلى أن يتحول إلى الهجوم على أعدائه ومطاردية من قصاصي الأثر، لم يتوان.. فهاجم وقتل الأعداء وعاد بالبندقية. ولكنه خسر ابنه، كما عرفنا. فلم يكن نجاحه كاملاً.. ولكن متى كان النجاح الإنساني كاملاً؟ والحقيقة أن فقدان الوليد مأساة، ولكنها مأساة نجمت عن خطأ غير مقصود. وهي مأساة كان لها أثرها في بنية الرواية، فقد عمقت تعاطفنا مع البطل (كينو)، ولم تنتقص من إعجابنا برجولته وإكبارنا لسعيه الصادق، وتقديرنا لتصميمه على تنفيذ خطته، وبالتالي فقد بدا لنا (كينو) بطلاً إيجابياً ومتناقضاً مع صورة بطل رواية ماركيز "قصة موت معزن" الذي عرفناه من قبل. فمنذ عثر على (اللؤلؤة) ارتسم له على سطحها أحلام وأحلام. وكان أكثر أحلام يقظته تطرفاً وأكثرها بهجة، هو امتلاك بندقية (انظر ص ٣٨). وقد حقّق هذا الحلم غير عابئ بما كان يعرفه عن الآلهة (الأقدار) من رغبة في "الانتقام من رجل ينجح نتيجة لجهوده الخاصة" (انظر ص ٤٢).

والحق أن البندقية هنا هي رمز القوة والهيبة، ورمز الأمن والطمأنينة. ولهذا السبب قال (جون شتاينبك) معلقاً على حلم الصياد بامتلاكها: "بتملك بندقية فإن أفاقاً كاملة ستنتفجر وسيمكنه الاندفاع إلى الأمام. فقد قيل بأن الإنسان غير قنوع أبداً، فأنت تعطيه شيئاً واحداً، فيطلب شيئاً آخر. وقد قيل هذا للحط من قيمة الإنسان، مع أن هذه صفة لأعظم المواهب التي يتمتع بها الإنسان. وهي صفة جعلته متفوقاً على الحيوانات القانعة بما تملكه" (ص ٣٨).

ومما تقدّم يبدو (كينو) مُحقّقاً في نضاله، إنه رجلٌ يسعى لتحقيق الإنسانية التي يفهمها (جون شتاينبك) عبر الصراع بين الخير والشر، وبين الأمن والتهديد، والفقر والغنى. ومن هنا صحّ لنا أن نفهم من "اللؤلؤة" رمزاً لأهدافنا في الحياة، أو لمشروعنا الأكبر الذي ينبغي أن ندافع عنه بكل بسالة. ويسوغ لنا هذا